الطائفية
في الوطن العربي (٤)

الأزمة الطائفية في الأدب المصري

أحمد الخميسي

بداية ونهاية

أكثر من مئة عام انقضت ما بين صدور أول رواية تتناول أوضاعَ أقباط مصر، وهي **القصاص حياة** لعبد الحميد خضر عام ١٩٠٥، وأحدثِ الأعمال التي تتناول القضيةَ ذاتَها وهي رواية **شيكاجو**، لعلاء الأسواني الصادرة عام ٢٠٠٧

قرنٌ كامل تعرّض فيه موضوعُ العلاقة بين مسلمي مصر ومسيحيِّيها إلى تغيرات كثيرة، وانعكس ذلك في الأدب المصري بأشكال مختلفة وعبر رؤًى عديدة. وبطبيعة الحال فإننا لسنا بصدد تقديم ثبتٍ بأسماء الروايات والأدباء الذين تناولوا ذلك الموضوع، ولا الرصد التاريخي للتحولات في التناول الأدبي لتلك الظاهرة والموقف منها؛ فتلك مهمة فوق طاقتي لكنّ ما أتمنّاه هنا أن أَعْرض بعضَ تجلّيات العلاقة بين الأقباط والمسلمين في الأدب عند لحظات التحوُّل الفاصلة، بما يكفي لإلقاء الضوء على القضية.

من هذا المنطلق ربما تكون روايةُ **شيكاجو**[١] لعلاء الأسواني أفضلَ ما نبدأ به، لا لتأثير أعمال ذلك الكاتب وانتشارها غير المسبوق فحسب بل لأنّ **شيكاجو** هي أيضًا أحدثُ ما صدر من أعمال أدبية تتناول الطائفية. وقد سبق للأسواني أن تناول الموضوعَ ذاتَه في رواية **عمارة يعقوبيان**،[٢] حيث قدّم شخصيةً قبطيةً هي سناء فانوس التي تداري شعورَها بالذنب من علاقاتها العاطفية بعمل الخير عن طريق الكنيسة. كما أنّه في مجموعته، **نيران صديقة**،[٣] وفي قصته المسماة «عزت أمين اسكندر» تحديدًا، يتّخذ من عزت القبطي بطلاً، ويصف لنا «ابتسامتَه الخافتة الوديعة.. ونظرتَه القبطية » وهو ما يكرِّره الأسواني في **شيكاجو** حين يقدِّم لنا د. كرم دوس، المهاجرَ المصري إلى أميركا، على أنّه «رجل مصري، ملامحُه قبطيةٌ خالصة.» فخلافًا لما هو شائع من أنّ تمييزَ القبطي عن المسلم بالملامح أمرٌ مستحيلٌ، فإنّ الأسواني يكاد يوقن بأنّ لأقباط مصر ملامحَهم الخاصةَ الفارقة. ويطرح الأسواني في روايته **شيكاجو** الأزمةَ الطائفيةَ من زاوية جديدة هي تدويلُ الصراع أو الأزمة عن طريق أقباط المهْجر. وينطلق في عمله من ركيزة أساسية هي أنّ الأقباط في مصر يعانون اضطهادًا واضحًا صريحًا لا يمكن إنكارُه ويكرّ الأسواني خيطَ الأزمة في الرواية بزيارة يقوم به صفوت شاكر، مسؤولُ المخابرات في السفارة المصرية، إلى عميل من الدارسين، ليسأله عن الطلاّب الأقباط في جامعة إيلينويْ وليَطلب منه إعدادَ تقرير عن د كرم دوس، أحدِ زعماء الأقباط في المهجر. ونَعْرف من الرواية أنّ كرم دوس كان يَدْرس الطبَّ في جامعة عين شمس، إلى أنْ عَطَّله عن الالتحاق بقسم الجراحة والنجاح في الماجستير أستاذُه المسلم د. عبد الفتاح بلبع الذي يحتقر الأقباطَ كافةً ولا ينادي أيّاً منهم إلا بكلمة «خواجة» (أيْ أجنبي). ومن ثم يقرِّر كرم دوس الهجرةَ إلى أميركا، لكنْ بعد أن يقول لأستاذه صراحةً: «أنت تظلمني لأنّي قبطي »

في مدينة شيكاجو يلتقي كرم دوس بناجي عبد الصمد الذي جاء للدراسة فيقول له: «الأقباط مضطهَدون في مصر هل سمعتَ بما جرى في قرية الكشح؟ لقد تمّ ذبحُ عشرين قبطيّاً أمام أعين الشرطة ولم يتحرك أحدٌ لإنقاذهم »[٤] وفي المقابل، يَطْرح ناجي رؤيةً أخرى للمسألة حين يقول لكرم دوس: «النظام في مصر مستبدّ وفاسد، يضطهد المصريين جميعًا، مسلمين وأقباطًا. جميعًا يعانون من التمييز ضدّهم، ماداموا ليسوا أعضاء في الحزب الحاكم. أنا مسلم، لكنّهم رفضوا تعييني في جامعة القاهرة بسب نشاطي السياسي.»[٥] ويتبيّن لنا مدى

١ ـ علاء الأسواني، **شيكاجو** (القاهرة دار شروق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧)
٢ ـ علاء الأسواني، **عمارة يعقوبيان** (القاهرة: مكتبة مدبولي، ٢٠٠٣)
٣ ـ علاء الأسواني، **نيران صديقة** (القاهرة دار ميريت، ٢٠٠٤)
٤ ـ ٥ ـ علاء الأسواني، **شيكاجو**، ص ١٦٥ ـ ١٦٤

مع أنّ التدخل الخارجي في الأزمة الطائفية لم يتوقّف يومًا داخل مصر، فإنّ حدّته تزايدت في العقد الأخير.

وحشية التمييز الديني حين يقدِّم كرم دوس، وهو أحدُ أمهر جرّاحي القلب في مدينة شيكاجو، عرضًا لجامعة عين شمس لإجراء العمليات مجّانًا مرةً في العام للمرضى في مصر، لكنّ الجامعة تتجاهل اقتراحَه! ويضيف الأسواني إلى شخصية كرم دوس بعدًا إنسانيّاً حين يصف لنا كيف قَبِلَ بإجراء عمليةٍ مجّانًا لإنقاذ حياة الدكتور عبد الفتاح، المسلم الذي سبق أن أَغْلق في وجهه فرصَ العلم والنجاح لمجرد أنّه قبطي!

وفي الرواية يقوم ناجي عبد الصمد المسلم المستنير، وكرم دوس القبطي، ود. جون جراهام اليساري الأميركي، بتنظيم مظاهرة في شيكاجو للمطالبة بوقف اضطهاد الأقباط في مصر، إلى جانب مطالب أخرى ومع أنّ التدخل الخارجي في الأزمة الطائفية لم يتوقفْ يومًا داخل مصر، إلاّ أنّ حدّتَه تزايدتْ في العقد الأخير بحيث وَجدت انعكاسَها في رواية **شيكاجو** باعتبارها تدويلَ الأزمة ظاهرةً جديدةً وفي الرواية سنجد نظرتين إلى الأزمة الطائفية تميزتْ بهما تاريخيّاً حركةُ الطليعة المصرية: الأولى التي ترى اضطهادَ الأقباط جزءًا من اضطهاد سياسي عامّ، والثانية تقدِّر أنّ للمشكلة ـ علاوةً على جذور الاضطهاد العامة ـ طابعَها الخاصَّ المعقّد.

أما عن أول رواية في ذلك الشأن، فإنّ الإشارة إليها تأتي في كتاب الدكتور سيد حامد النسّاج، **بانوراما الرواية العربية الحديثة**، حين ينوِّه بكاتبٍ لم يَرِد اسمُه في أيّ من المؤلَّفات، وهو عبد الحميد خضر القرقاصي، مؤلِّف رواية **القصاص حياة** التي صدرتْ عام ١٩٠٥. وجاء في مقدّمة المؤلّف أنّه استند في عمله إلى حادثة حقيقية وقعتْ يومَ الأربعاء ٢٧ أكتوبر ١٩٠٣ في بلدته أبو قرقاص بمديرية المنيا. تروي الرواية أنّ كرلس عبد الملك الترابي، الشابَّ اللاهي، دَبّر حيلةً لقتل ابن عمه غالي، الذي خطب نجلاء التي كان كرلس يحبّها بجنون، فدَسّ له السمّ في حلواه، لكنّ صبيّاً عابرًا أكلها ومات بها. ويَعْرض المؤلِّف سجنَ كرلس، وصدورَ الحكم بالإعدام عليه، ثم تفكيرَ كرلس في تغيير ديانته لينجو من الحكم. ويَطْرح الكاتبُ قضيةً أخرى، هي زواجُ البنت عند المسيحيين رغم أنفها، فيرفضه وهكذا نجده يخوض في قضايا شائكة. وبحسب كلمات د. النسّاج، فإنّ تلك الرواية هي أولُ رواية تتناول مشكلةً خاصةً بالبيئة المسيحية في صعيد مصر، وتلك «جرأةٌ لم تتأتَّ إلاّ لكاتب مسيحي هو عيسى عبيد عام ١٩٢٢.» ومع أنّ عبد الحميد خضر لم يَطْرح المسألة من زاوية الصراع الطائفي، إلاّ أنّه قدّم للمرة الأولى موضوعَ التمايز الثقافي والديني بين المسلمين والأقباط وقضيةَ تغيير الديانة التي مازالت تثير المشكلات إلى يومنا.

الأزمة الطائفية في الأدب المصري

بين «عودة الروح» وثورة يوليو

في خضمّ ثورة ١٩، التي وحّدت الشعبَ المصري بأقباطه ومسلميه في مشروع وطني، برزتْ روايةُ **عودة الروح** لتوفيق الحكيم التي كتبها عامَ ١٩٢٧، سنةَ وفاة سعد زغلول زعيم الثورة وسنلحظ أنّ الرواية تتحدث عن «التحام الكلّ في واحد»؛ وأنّ الحكيم جعل سَنيّة، بطلةَ الرواية، تجسيدًا لوحدة تاريخ مصر ـ الفرعوني القبطي، والإسلامي ـ حين رمز لها بإيزيس: فهي سَنّية المسلمة، وهي في الوقت ذاته إيزيس، وهي في كلّ الأحوال، وعلى حدِّ قول علي الراعي، «جمعتْ أوصالَ البلاد لتعيد الروحَ إليها.»[١] وهذه هي الرؤية الموحّدة عينُها التي ألهمت النحّاتَ العظيم محمود مختار عبقريةَ تمثاله «نهضة مصر» عامَ ١٩٢٨، الذي جسّد فيه مصرَ في هيئة فلاّحة تضع يدَها على رأس أبي الهول في كتلةٍ صخريةٍ واحدة فرعونية قبطية ـ عربية مسلمة.

في مارس من العام ذاته أصبح ويصا باشا واصف أولَ قبطي يُنتخب رئيسًا لمجلس النواب! ولا عجب أن تتردّد أغنياتُ سيد درويش وبديع خيري التي تقول: «لا تقول نصراني ولا مسلم.. اللي أوطانهم تجمعهم. عمرها الأديان ما تفرقهم.» ولكنْ بانحسار المدّ الوطني، تمكّن الطاغية إسماعيل صدقي عامَ ١٩٣٠ من إلغاء دستور ١٩٢٣، الذي كان ثمرةَ الكفاح الوطني المشترك للمصريين على اختلاف أديانهم، ليَفْتح بذلك البابَ للطائفية.

في **السكّرية**، يعترف نجيب محفوظ بوجود أزمة طائفية، ويحدِّد موقفه منها على لسان كمال عبد الجواد متسائلاً «كيف يتأتّى لأقليّة أن تعيش وسط أغلبيّة تضطهدها؟»[٢] وبالرغم من ذلك فإنّ محفوظ يَعْرض لصداقةٍ ومودةٍ لا يفرّقهما اختلافُ الدين بين كمال المسلم والقبطي رياض قلدس، مع أنّهما «لم يكونا شيئًا واحدًا، وإنْ كانا متكاملَيْن فيما يبدو.»[٣] وتنفجر مشكلةُ الطائفية على لسان رياض حين يصارح كمالاً بقوله: «إنّ الأقباط جميعًا وفديون، ذلك أنّ الوفد حزبُ القومية الخالصة التي تجعل من مصر وطنًا حرّاً للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم، ولذلك كان الأقباط هدفًا للاضطهاد السافر طوال عهد صدقي.»[٤] ويوجز رياض الأزمةَ التي يعيشها القبطيُّ قائلاً «أشعر في أحايين كثيرة بأنّ المسيحية وطني لا ديني وربما إذا عرضتُ هذا الشعور على عقلي اضطربتُ ولكنْ مهلاً. أليس من الجبن أن أنسى قومي؟ شيء واحد خليق بأن ينسيَني هذا التنازع، ألا وهو الفناءُ في القومية المصرية الخالصة.»[٥]

حين يُعْرب رياض عن شعوره بأنّ المسيحية وطنُه فإنّه في حقيقة الأمر يشير إلى زاويةٍ غايةٍ في الأهمية، هي التمايز الثقافي الذي يرافق المواطنَ منذ نعومة أظافره. ومن الغريب أن يشير كاتبٌ قبطيٌّ آخر، وهو رؤوف مسعد، إلى الظاهرة ذاتها بعد انقضاء نصف قرن، حين يقول: «هناك بديهيات أهمُّها أنّني لا أستطيع التنكُّرَ لجذوري الثقافية الدينية (بالرغم من عدم إيماني) التي تعطيني قدرًا من الخصوصية في كتاباتي الأدبية لا يمتلكه الكاتبُ المسلم.»[٦]

ورغم أنّ مدّاً طائفيّاً ظهر في الأربعينات، وبخاصةٍ مع بروز الإخوان المسلمين، إلاّ أنّ ثورة يوليو عالجتْ بطريقتها الخاصة الأزمةَ الطائفية، بحيث أصبحنا نقرأ لإحسان عبد القدوس قصةً مثل **الله محبة**، وبحيث أصبح عبد الحميد جودة السحار يكتب **المسيح عيسى بن مريم** جنبًا إلى جنب مع **السيرة النبوية** وكأنّه يَنْهل من نبعٍ واحد.

السادات يفجِّر الأزمة

إلاّ أنّ أزمة الطائفية تفجّرتْ أعنفَ ما تكون بعد ذلك، وتحديدًا عندما تخلّى أنور السادات عن اسم «جمهورية مصر العربية

١ ـ د علي الراعي، **دراسات في الرواية المصرية** (القاهرة المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٤)، ص ١٠٥ ـ ١٠٦

٢ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ نجيب محفوظ، **السكّرية** (القاهرة مكتبة مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦١)، ص ١٧٤ ـ ١٧٦

٦ ـ رؤوف مسعد، حوار معه في ٢٩ نوفمبر ٢٠٠٥، **شفاف الشرق**، سامح سامي

تفجّرتْ أزمةُ الطائفية عندما أعلن السادات «الإسلام دين الدولة،» الأمر الذي فرض على الأدب طرحًا أشدّ صراحةً ووضوحًا.

المتحدة» وأعلن في ١١ سبتمبر ١٩٧١ الدستورَ المعمولَ به إلى اليوم والذي نصّ في مادته الثانية على التالي: «الإسلام دينُ الدولة، ومبادئُ الشريعة الإسلامية المصدرُ الرئيسيُّ للتشريع.» وفي الوقت ذاته أَطلق السادات كلَّ القوى الدينية الرجعية من إسارها، ليواجه بها التيارَ القوميَّ واليساري المعارضَ للتحولات التي قام بها. وفي ١٤ مايو ١٩٨٠، وهو ذروةُ الصراع الديني والطائفي، أعلن السادات في خطابٍ له «أنا رئيسٌ مسلمٌ لدولة إسلامية» ـ وهذا ما لم يصرِّح به أيُّ حاكمٍ مصري منذ محمد علي، وهو تجاهلٌ للثنائية الدينية في مصر. ومنذ عام ١٩٧٢ لم تتوقف أشكالُ الصراع الطائفي بين المسلمين والأقباط، المستترةُ طوال الوقت، والعنيفةُ المتفجّرة في ذروة الأزمات وبعد أن كان الوطنُ دينَ المصريين، أصبحتْ أديانُهم أوطانَهم، الأمرُ الذي فَرَضَ على الأدب طرحًا آخر أشدَّ صراحةً وأكثرَ وضوحًا.

هكذا ظهرتْ رواية **وعلى الأرض السلام**، لفاروق خورشيد، عامَ ١٩٨٤ بعد وفاة السادات والواضح أنّها كانت ثمرةَ تأمّل وردّ فعل على عنف الأزمة الطائفية التي بلغتْ ذروتَها في أحداث الزاوية الحمراء في ١٧ يونيو ١٩٨١، والتي أُحرقتْ خلالها منازلُ الأقباط ومحلاتُهم، وقُتل فيها نحو ثمانين قبطيّاً، بحسب تقدير غير حكومي، أو تسعةٌ بحسب الإفادة الرسمية. في هذه الرواية يجدِّد خورشيد مواثيقَ الحركة الوطنية تجاه الأزمة، ودعوةَ توفيق الحكيم إلى وحدة تاريخ مصر وتجميع أوصال البلاد. إلاّ أنّه لا يجعل شخصيتَه الأولى امرأةً، بل رجل قبطي هو فيليب. وإذا كان الحكيم قد دَمَجَ إيزيس في سَنيّة، فإنّ خورشيد يَدْمج فيليب في رمز عربي هو سيف بن ذي يزن، وتَردُ على لسان إحدى الشخصيات عبارةُ «الكلّ في قارب واحد»[1] المرادفة لعبارة «التحام الكل في واحد» التي أشار إليها د الراعي بشأن **عودة الروح**، والمرادفة أيضًا لعبارة نجيب محفوظ «كانا متكاملَيْن فيما يبدو» ـ وكلُّها تنويعاتٌ مستنيرة على شعار القومية المصرية «الدينُ لله، والوطنُ للجميع.»

زيدان وأنطون وغوربال

إجمالاً يمكن القول إنّ ضمير الأدب المصري لم يتخلّ لحظةً عن شعوره بالتسامح ودعوته إلى التآخي، وإنْ كان لكلّ قاعدةٍ استثناء، لا على صعيد الأدباء المسلمين وحدهم بل وعلى صعيد الأدباء الأقباط أيضًا فبينما أخذ الإخوان المسلمون يلحّون على الدعوة إلى «أدب إسلامي» وإلى «أسلمة العلوم،» أخذ بعض الأقباط، وكردّ فعل، يتشبّثون بفكرة الأدب القبطي، وإحياءِ الموسيقى الفرعونية، بل واللغةِ القبطيةِ القديمة. وفي هذا الصدد يشير د. عبد المحسن طه بدر في كتابه **تطور الرواية العربية الحديثة (١٨٧٠ـ ١٩٣٨)** إلى النظرة الدينية المسيحية في الرواية المصرية. فيقول إنّ جرجي زيدان، الشامي المتمصِّر، كان كثيرَ التعاطف في رواياته مع الفرس والأرمن والبرامكة وغيرهم، ولم يكن منصفًا للعرب والمسلمين، وعادةً ما تكون الصفاتُ الإيجابيةُ من حظّ أبطاله المسيحيين. وهو ما فعله أيضًا فرح أنطون في روايته **أورشليم الجديدة**، التي تحدّث فيها عن فتح العرب لبيت المقْدس فرغم ميول أنطون الاشتراكية، فقد كان ملحوظًا «تعصُّبُه ضدّ العرب والمسلمين ويَظْهر ذلك أولاً في أنّ جميع أبطال قصته كانوا من غير العرب والمسلمين كما أنّه حقّر النبيّ أرميا في روايته لأنّه أسلم.» وهناك أيضًا روايةٌ تبشير مسيحي كتبها مسيو ثيوبلد عامَ ١٩٢٨ باسم **زهرة الغابة**، ونشرتْها مطبعةُ النيل المسيحية، وفيها دعا المسلمين إلى المسيحية وتعصَّبَ تعصُّبًا شديدًا ضدّ الإسلام ويُرجع الدكتور عبد المحسن طه بدر ذلك إلى أنّ غالبية أولئك المؤلفين كانوا من الشوام الذين لم ينصهروا في بوتقة التاريخ المصري[2] وفي هذا الإطار تظهر رواية **اللوح المكسور** لزكي غوربال زكي، لتكشف عن تلك الخصوصية الثقافية التي تمثّل جانبًا من الأزمة، ولتبيِّن أنّ للمسألة الطائفية جانبًا أبعدَ من أن يُحَلّ بمجرد قيام نظام سياسي عادل يُقِرُّ في الدستور بحقوق كافة الأطراف، ويضعها موضعَ الممارسة الفعلية

١ ـ فاروق خورشيد، **وعلى الأرض السلام** (القاهرة الهيئة المصرية العامة، ١٩٨٤)

٢ ـ د عبد المحسن طه بدر، **تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، ١٨٧٠ ـ ١٩٣٨** (القاهرة دار االمعارف المصرية، الطبعة الرابعة ١٩٨٣)، ص ١٠٨ ـ ١١٤

الأزمة الطائفية في الأدب المصري

ففي هذه الرواية يفتح الكاتب أمام أعيننا الحياةَ القبطيةَ وطقوسَها الدينية، ويطرح إلى جانب ذلك جوهرَ الأزمة حين يقول باولا الرواي لزوجته ناهد إنّ سبب صدور قرار بنقله من وظيفته في القاهرة إلى بني سويف هو «التفرقة الدينية.» ويرسم الأستاذ غوربال صورةً دقيقةً للنفسية القبطية الحذرة، المترددة، التي تكوّنتْ عبر تاريخ طويل من التمييز. انظرْ مثلاً حين تقول ناهد لزوجها باولا: «إذا توحَّدْنا لن يَقْدر أحدٌ على النيل منّا،» فيجيبها بقوله: «وإذا تكتلنا سينالنا كلُّ الضرر.» فالحقّ أنّ إجابة باولا هذه توضّح أيّما توضيح شعورَ الأقباط من ناحية بضرورة توحُّدهم، وخوفَهم في الوقت ذاته مما قد يَجْلبهم عليهم ذلك التكتُّلُ من صدام ومشكلات. وهذه النفسية الحذرة، التي يَخْلقها الشعورُ الدائمُ بتربّص الآخرين بصاحبها، تَبلغ أعلى درجاتها حين يلتقي باولا بزملائه الجدد في العمل، وكلُّهم من المسلمين ما عدا ماتياس القبطي، ويقوم أحدُهم بتعريف الآخرين إلى باولا قائلاً له: «لدينا كلّ التخصّصات. أنا وسيد فرغلي طاولة، فرغلي متخصّص جلبهار، همام دمينو، الأستاذ متياس شطرنج.» ويفكّر باولا كالتالي: «إنّه يحب الشطرنج، لكنّه لو أعلن ذلك فسيُفْهم ضمنًا تشيُّعُه لمتياس» إلى هذه الدرجة، إذن، يصل الحذرُ من سوء الفهم، ومن مظنّة التشيع! ويقرّر باولا أن يذهب معهم «بما أنّه قرّر تنحيةَ قبطيته جانبًا.. وخشيةَ أن يشعروا بأنّه يرفضهم.» (ثمة، إذن، قبطية تتمّ تنحيتُها لصالح الأغلبية) ويصل الحذرُ بباولا إلى درجة أنّه حين يلعب الطاولة مع محمد أفندي يفكّر كالتالي: «خشي من فوزه على محمد أفندي .. فلَعِبَ كيفما اتفق حتى لا يستثيره ضدَّه.. لكنّ الحظ عانده وكسب» (فوزُ القبطي هنا سوءُ حظٍّ، عليه أن يتفاداه!) ويمضي باولا مفكّرًا بينه وبين نفسه: «أجتهدُ ألاّ أكسبَ في الأدوار التالية،» لكنّه يفوز رغم اجتهاده! ويفكّر: «ماذا يفعل في مواجهة تلك الكارثة؟» ويختار باولا، كمَخْرج من المأزق، أن يغيِّر نوعَ اللعبة ليتمكّن من الخسارة؛ فالمهمّ أن يحتفظ بودّ الآخرين نحوه. إنّ باولا «غريب وعاجز، ينموَ بداخله رفضٌ لحالته، لكنّه لا يملك حلاً.»[1]

على أنّ ما يعانيه باولا ليس حالةً تخصّه وحده، بل هي حالةٌ عامة. ويؤكّد ذلك ما يصفه لنا الكاتبُ من بيت متياس القبطي. فهناك «بابٌ حديدي، في كلّ ركن منه صليبٌ مستترٌ في التشكيل الحديدي»؛ وحتى الأقمشة التي تغطّي الأجهزةَ الكهربائية فإنها عبارة عن «كسوة مزركشة، والزركشة تحتوي على صلبان مستترة.» وليس لمدارة النفسِ والعقيدةِ من سببٍ سوى ما أشاعتْه الأغلبيةُ في نفوس الأقلية من خوفٍ وحذر. والحقّ أنّ الصورة النفسية التي قدّمها الأستاذ غوربال لوجدان الأقلية هي تكثيفٌ حقيقيٌّ للأزمة في أعمقِ مستوياتها الروحيةِ غيرِ المرئية.

أعمال العقد الأخير

في العقد الأخير ظهرتْ أعمالٌ أدبيةٌ عديدة تَعْكس عمقَ الأزمة الطائفية. منها: **صخور السماء** لإدوار الخرّاط وتتناول حكايةَ أسرةٍ قبطية، و**الغردقة** لرأفت الميهي، و**صانعة المطر**، و**بيضة النعام** لرؤوف مسعد، و**سانت تريزا** لبهاء عبد الحميد، و**أحزان بلدنا** لمكرم فهيم، و**كف مريم** لسعيد سالم. وقد يوضح هذا الاهتمامُ الكبيرُ من جانب الكتّاب، وذلك الكمُّ الضخمُ نسبيّاً من الروايات، عمقَ الأزمة وحاجتَها إلى حلّ.

تَعْكس روايةُ **كف مريم** لسعيد سالم الأزمةَ الطائفية حين يَعْرض لنا التعصُّبَ الذي تعانيه مريم في عملها. فهي، مثلها مثل د. كرم دوس في **شيكاجو**، تتعرّض لتعطيل ترقيتها، حتى تسأل نفسَها: «أيُّ وطن هذا الذي لا أستطيع الحصولَ فيه على حقي دون أن أريق ماءَ وجهي؟» ويزحف التعصبُ الأسودُ إلى ما هو أكثر من ذلك حين يُقتل دانيال، شقيقُ مريم، داخل صيدليته على أيدي مجرمين ملتحين ارتكبوا جريمتَهم وسَرقوا أموالَه من الخزينة. ويتحدّث سمير زخاري، القبطيُّ المهاجرُ صديقُ مريم،

١ ـ زكي غربال زكي، **اللوح المكسور** (القاهرة الحضارة للنشر يوليو ٢٠٠٠)، ص ١٣ ـ ١٤، وص ١٩ ـ ٢٠، وص ٦٦

معظم ما أبدعه الأدب المصري ينبض بالحرص الشديد على وحدة مصر، ويدعو إلى إنصاف الأقباط ووقف التمييز ضدّهم.

صراحةً عن «الإرهابيين المصريين» الذين قَتَلوا صديقَ الدراسة فرج فُودة، ويواصلون حملاتِ القتل «ضد الأقباط أحيانًا، وضد الأقباط والمسلمين أحيانًا أخرى بلا أدنى تفرقة.» إلاّ أنّ كفّ مريم تمتدّ في نهاية العمل إلى زميلها القديم حليم صادق، المسلم الذي استطاع بالحب أن ينتزع من قلبها الشوكَ الذي غرستْه الفتنةُ والتعصُّبُ والعدوان.[1]

وبشكل عامّ يمكن القول إنّ معظمَ ما أبدعه الأدبُ المصري، حيثما صَوّر الأزمةَ، كان يَنْبض بالحرص الشديد على وحدة مصر، والقلقِ على مستقبلها، والدعوةِ إلى إنصاف الأقباط ووقفِ التمييز ضدهم. وفي هذا المجال تَشْغل روايةُ بهاء طاهر، **خالتي صفية والدير**، مكانةً خاصةً جداً، مستمدّةً من قدرته الأدبية التي لا نظيرَ لها، ومن ضميره المرهَف وقد خرجت الرواية إلى النور عام ١٩٩١، وكانت من زاويةٍ مّا ردَّ فعل على أحداث العنف التي تلاحقتْ ما بين عاميْ ١٩٨٠ و١٩٩٠، ولاسيّما في جنوب مصر.[2] وقد سعى الكاتب ونجح في أن يُشعر القارئ بأنّ حياة المصريين واحدةٌ، سواء أكانت في بيت مسيحي أمْ مسلم، وأنّ اختلاف الدِّين لا يجعلنا مختلفين إلى درجة الصراع لأنّ ما يَجْمعنا في الحياة أكثرُ بكثير وأقوى

تدور أحداثُ الرواية في قرية صغيرة في صعيد مصر تقع بالقرب من أحد الأديرة القبطية ويصف لنا الروائي الكبير في الفصل الأول حياةَ القرية والصِّلاتِ الطيبةَ التي تربط ما بين أهلها. ويتذكّر كيف كان ينتظر قدومَ العيد ليَحْمل، وهو صبيٌّ صغير، الكعكَ إلى الدير، وكيف كان يلتقي هناك بـ «المقدّس بشاي» الذي يَتْرك في نفس الصبي أثرًا لا يُمحى بمودّته وطيبته. أما صفية، الشخصية الرئيسية، فإنّها ليست خالة الرواي في الواقع، بل بنت خال أمه، إلا أنّه اعتاد أن يناديها بقوله «خالتي صفية » هكذا يَطْرح بهاء منذ البداية وحدةَ تاريخ مصر، ثم يطرح صفية والدير كحقيقتيْن لا بدّ أن تتعايشا في وئام وحبّ صفية تحبّ حربي، قريبَها، وحربي يعشقها، والقريةُ تعلم أنّ صفية لحربي، وحربي لصفية إلا أنّ «البك» صاحبَ القصر يطلب صفية زوجةً له، ولا يمكن ردُّ طلبه هكذا تنصاع صفية وتتزوج البك وتُنْجب له ابنَه حسّان. وتتحرك الوشاية لتلعب دورَها حين يَسْمع البك بأنّ حربي يخطِّط لقتل حسان، انتقامًا من البك. وتتعقّد الأحداث بحيث يجد حربي نفسَه مرغمًا على قتل البك بالفعل، ومن ثم يتمّ سجنه أما صفية التي كانت تعشق حربي، فإنّ الكراهية تشغل قلبَها كلَّه الآن، بل لا شاغل لها سوى ترقّب خروج حربي من السجن لتقتله هي، أو يقتله ابنُها حسان. وعندما يخرج حربي من السجن، لا يجد ملاذًا له سوى في الدير. هنا يصبح الدير قائمًا على خط الاشتباك بين صفية وحربي ويقول أحدُهم لصفية «إنْ خرج من الدير قتلناه ولكننا لا نستطيع أن نقتله فى الدير . حرام » ويكرّر فارس زعيمُ المطاريد المعنى ذاتَه قائلاً لحنين باستنكار: «تريدني يا حنين أن أعتدي على الرهبان الذين أوصى عليهم ربُّنا سبحانه وتعالى في القرآن؟»

لقد سَبَّ أئمةُ المساجد الروايةَ في خطب الجمعة حين تحوّلتْ إلى مسلسل تلفزيوني. إلا أنّ الرواية في واقع الأمر لم تتعرّضْ بشكلٍ مباشر للطائفية إلا من زاوية نفيها لجذور الطائفية بالتأكيد على المحبة التي تَجْمع أهلَ القرية، وبأنّ الدير كان يمثّل حمايةً لحربي المسلم وفي ذلك المجال تحديدًا نجح العملُ في نقل رسالة حب تبدِّد أجواءَ الظلام القاتمة. ومن هذا المنظور تحديدًا، أيْ منظور نقل رسالة التآخي تلك، كانت جِدّةُ رواية بهاء طاهر وعظمتُها. وبرسالةِ حبِّ مصر التي يبثّها بهاء طاهر، نختتم هذا المقال.

القاهرة

د. أحمد الخميسي

ناقد أدبي، وصحافي، ومراسل الآداب في مصر

١ ـ سعيد سالم، **كف مريم** (القاهرة مطبوعات اتحاد الكتاب المصريين، ٢٠٠١)

٢ ـ بهاء طاهر، **خالتي صفية والدير** (القاهرة روايات الهلال، ١٩٩١، وبيروت دار الآداب، ١٩٩٩)